إنطلق من رغباتك الأرضية

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنوده الثالث

هل تعرف من أى شئ يجب أن تهرب ؟ اهرب من الأغراض , من الآمال ، من الرغبات اهرب من كل أولئك ، ان كنت تود حقا أن تصل الى انطلاق الروح .

اسمح لى يا اخى الحبيب أن أدخل قليلا الى قلبك ، و أتحدث اليك فى صراحة . ان لك آمالا عريضة تشغلك كثيرا , و تحتل جانبا من قلبك بل هى تحتل خيالك أيضا فتجلس فى وحدتك و تحلم بها أحلام اليقظة ، تأوى الى فراشك فترى هذه الآمال فى نومك . لك أهداف أنت أدرى الناس بها , و لست مستطيعا أن تنكرها . انك تود أن تكون شيئا هاما , تود أن يعرفك الناس , و يبجلوك . لك آمال فى الشهرة و الصيت , و لك آمال فى السيطرة و النفوذ , و لك رغبات فى المال , و فى المركز الاجتماعى , و فى العلم , و فى الألقاب , و فى المستقبل , و فى المظاهر و السمعة . و لك رغبات فى المسكن و المأكل و الملبس , و لذات الجسد المنوعة . انك لا تعيش فى العالم بل العالم هو الذى يعيش فيك , و يستولى على قلبك و فكرك و خيالك و مشيئتك أيضا . أما روحك التى تعيش حبيسة فى هذا كله فانها تود الانطلاق من رغبات جسدك , الجسد الذى " يشتهى ضد الروح " .

انك يا أخى الحبيب تشقى بهذه الآمال و الأغراض , فهى لا تتحقق جميعها , و لذلك فأنت غير راض . انك تشتاق و تشقى فى اشتياقك و لذلك فأنت تعد العدة , و تلتمس الوسائل : تفكر , و تقابل , و تكتب , و تسير و تذهب , و تسعى و تتعب فى سعيك . ثم أنت تجلس و تنتظر , و قد يضيق صدرك , و تمل الصبر والترجى , و يدركك اليأس أو القلق أو خوف الفشل , فتشقى بانتظارك . و قد ينتهى السعى و التعب الى لا شئ و تحرم من رغبتك التى تودها فتشقى بالحرمان . و أخطر من هذا كله , فان آمالك و أغراضك قد تجنح بك عن طريق الصواب فتتعلم بسببها الخداع , أو اللف و الدوران , أو التزلف و التملق , أو الكذب , أو ما هو أبشع من هذا ... و كما قال أحد الحكماء " لابد أن ينحدر المرء يوما للنفاق , ان كان فى نفسه شئ يود أن يخفيه " .

انك متعب , و أنا أعرف هذا و أشفق عليك فى تعبك . فالى متى تعيش فى جحيم الآمال ! و العجيب فى رغباتك الترابية هذه , أنها تشقيك أيضا حتى اذا تحققت

. فرغبتك عندما تتحقق تتلذذ بها , و تقودك اللذة الى طلب المزيد . و هكذا كما قال السيد المسيح : " من يشرب من هذا الماء يعطش " (يو 4 : 13) . و عندما يعطش سيسعى الى الماء مرة أخرى ليشرب , و كلما يشرب يزداد عطشا , و كلما يزداد عطشا , يزداد اشتياقا الى هذا الماء .

لذلك يا أخى الحبيب أود أن أناقش معك الأمر فى هدوء . لماذا تتمسك برغبات معينة فى العالم , و العالم يبيد و شهوته معه . انك غريب مثلى على الأرض , و ستأتى ساعة تترك فيها هذا العالم و تترك فيه كل ما أخذته منه . عريانا خرجت من بطن أمك و عريانا تعود الى هناك . ستترك رغما عنك كل ما فى العالم من عظمة و مال و شهرة و تتوسد حفرة كأحقر الناس , و مهما بلغت فى العالم من سطوة أو متعة أو شهرة , فان هذا سوف لا يمنع جسدك الفانى من التعفن , و سوف لا يمنع الدود من أن يرعى فى جثتك حتى يأتى عليها . و ستقف بعد هذا كله أمام الله مجردا من مظاهر العالم المنوعة , لم تأخذ من الدنيا غير أعمالك , خيرا كانت أم شرا . فحرام عليك يا أخى الحبيب أن تركز أغراضك و آمالك فى هذه الأرض , الأرض التى تنبت لك شوكا و حسكا , و الأرض التى قبلت دماء هابيل البار , و الأرض التى يحفرون فيها آبارا مشققة لا تضبط ماء . (ار 2 :13) .

ان الآباء القديسين الذين عاشوا قبلنا على الأرض , و لم تكن الأرض مستحقة أن يدوسوها بأقدامهم , هؤلاء جميعا لم يصلوا الى ما وصلوا اليه من قداسة , الا بعد أن فرغوا قلوبهم من حب العالم و الأشياء التى فى العالم , فلم تعد لهم على الأرض رغبة أو شهوة , و لم يحتفظوا فيها بقنية أو ملك . لم يتمسكوا بشئ فى العالم لذلك سهل عليهم أن يتركوه , بل اشتاقوا الى ذلك اشتياقا .

أما أنت يا أخى الحبيب فلك رغبات أرضية , " و حيثما يكون كنزك يكون قلبك أيضا " . لذلك تعلق قلبك بالتراب و مجد التراب , فقلت قيمة الروحيات فى نظرك . انها التجربة التى حاول بها الشيطان اغراء رب المجد " أخذه الى جبل عال جدا و أراه جميع ممالك العالم و مجدها و قال له أعطيك هذه جميعها ان خررت و سجدت لى " . و ان ملكت هذه جميعها ماذا تستفيد ان خسرت روحك , روحك الحبيسة فى قفص مذهب من الرغبات , و تود أن تنطلق .